

وعلى العكس من هؤلاء ثمة فريق من السينمائيين لا يرى في العمل الأدبي سوى مادة خام يشكلونها على هواهم ووفق رؤياهم الفنية والفكرية الخاصة، فيطرحون من الأصل الأدبي ما يشاؤون ويضيفون عليه ما يشاؤون.

وبين هذين الطرفين النقيضين كان دائما ثمة سينمائيون يحاولون أن يقيموا حوارا خلاقا مع العمل الأدبي، فلا يشوهونه من أجل إرضاء نزعاتهم "السينمائية"، وإنما يحاولون إعادة إنتاجه بلغة سمعية بصرية، لا تقفز فوق الأصل، ولكنها في الوقت نفسه تبتعد عن تلك الأمانة الحرفية الكاذبة التي تشوه الأصل الأدبي بقدر ما تشوّهه تلك "التنقيحات" والتعديلات التي يقوم بها أنصار التصرف بالعمل الأدبي وكأنما هم من كتبه.

أنا شخصا أعتقد أن أفلمة الأعمال الأدبية هي أقرب ما تكون إلى الترجمة، وتحديدًا ترجمة الشعر. فنحن عندما نترجم عملا أدبيا من لغة إلى لغة أخرى لا ننقل النص كلمة بكلمة، وإنما فقرة بفقرة ومعنى بمعنى، مراعين في ذلك ليس قواعد اللغة التي ننقل منها وإنما قواعد اللغة التي ننقل إليها. كذلك لا فائدة من ترجمة قول سائر أو مثل شعبي بحرفيته إذا كان لا يعني شيئا لاهل اللغة المترجم إليها، ففي هذه الحالة ينبغي أن نبحث عن قول سائر أو مثل شعبي في اللغة التي نترجم إليها قريب من القول والمثل الأصليين، فالمهم هو إيصال شيئين مهمين: المعنى والصورة الأدبية.

أما ترجمة الشعر فهي أصعب أنواع الترجمة على الإطلاق، لأنه ينبغي عليك أن تنقل، إضافة إلى المعنى والصورة الأدبية، موسيقى القصيدة وإيقاعها الداخلي. في أفلمة الأدب سيصادفنا الشيء نفسه والمهام نفسها، إذ ينبغي أن نترجم القصة أو الرواية إلى عمل سمعي بصري مختلف تمام الاختلاف في أدواته عن القصة والرواية. صحيح كما قال أحدهم مرة: الفيلم هو القصة التي يرويها، ولكن في حقيقة الأمر فإن الفيلم أبعد من ذلك بكثير. إذ يمكن أن نشاهد فيلما منقولًا بأمانة كبيرة عن رواية نحبها ومع ذلك نخرج من الفيلم محبطين. فالأمانة في السينما لا تعني أبداً النقل الدقيق للملامح الخارجية لكل من الشخصيات والأحداث، وإنما هي تكمن في القدرة على الإمساك بالمعنى العميق الذي يربط هذه الشخصيات والأحداث. لا أريد أن أتحدث هنا عن الضرورات التقنية والإنتاجية التي تجبر هذا المخرج أو ذاك على اختصار وتقليص الرواية التي يعمل عليها، وإنما أقصر كلامي على المبادئ الفنية وحدها.

إن الفشل أو النجاح في أفلمة رواية، ليس ناتجا بالضرورة عن الفشل أو النجاح في مشابهة الفيلم السينمائي للرواية الأصلية، وإنما هو ناتج في معظم الأحيان عن الفشل أو النجاح في فهم ما يميز كلاً من الأدب والسينما وما يوحدهما.



محمد الأحمد

الأدب والسينما

اعتمدت السينما في بدايتها وبشكل أساسي على فنيين عريقين هما الرواية والمسرح، وبدونهما كانت أشبه بطفل ضائع. ومع الوقت تطور هذا الفن الناشئ واشتد عوده وبدأ يفرز كتابه الخاصين به، ومع ذلك لم يستطع الاستغناء أبداً، وفي كل مراحل حياته عن الاستعانة بالرواية والمسرح. كانت بداية التعاون بين السينما والأدب متواضعة للغاية. يكفي أن نعرف مثلاً أن روايات ضخمة مثل "أنا كارينينا" و"الحرب والسلام" و"الجريمة والعقاب" قد تحولت إلى أفلام، في بداية القرن، لا يتجاوز طول الواحد منها أكثر من عشر دقائق أو ربع ساعة. لقد كانت أفلمة الأعمال الأدبية في بدايات السينما لا تعني سوى عرض إيضاحي بواسطة الصورة لبعض عناصر هذه الرواية أو تلك. ولكن مع الزمن تطورت هذه العلاقة وتشعبت وافرزت مفاهيم وتيارات ومذاهب مختلفة في النظرة إلى العلاقة القائمة أو التي ينبغي أن تقوم بين السينما والأدب، بين الفيلم السينمائي المستند إلى عمل أدبي ما وبين هذا الأصل الأدبي.

ثمة مخرجون سينمائيون يعتقدون أنه طالما تنطعوا لعمل أدبي فإن عليهم أن يتعاملوا معه باحترام لجهد مؤلفه وأمانة لأحداثه وشخصياته ورؤياه الفكرية والفنية،